الفصل السادس
شعيب نبي الله وقومه

آمن شعيب بنبي الله إبراهيم، وهاجر معه، ودخل معه دمشق، وكان فصيحاً مفوهاً حيث كان بعض السلف يسمي شعيبًا بخطيب الأنبياء لفصاحته، وحلاوة عبارته ،وبلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان. أُرسِل شعيب إلى أهل مَدْيَن برسالته كما جاء بالقرآن الكريم آمن شعيب بنبي الله إبراهيم، وهاجر معه ودخل معه دمشق، وكان فصيحاً مفوهاً حيث كان بعض السلف يسمي شعيبًا بخطيب الأنبياء لفصاحته وحلاوة عبارته وبلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان. أُرسِل شعيب إلى أهل مَدْيَن برسالته كما جاء بالقرآن الكريم ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)الأعراف

(كان أهل مدين قوم كفار ضالين يعبدون الأيكة، والأشجار والنباتات إضافة إلى أنهم سيئ الخلق والأخلاق حيث كانوا ينقصون المكيال والميزان، ولا يعطون الناس حقهم فدعاهم شعيب إلى عبادة الله وأن يتعاملوا بالعدل.

لم تكن قضية نبي الله شعيب قضية توحيد، وألوهية فقط، بل إنه كذلك كان تعديل وتقويم لأسلوب حياة الناس، فبدأ شعيب في توضيح أمور سوء تعاملهم وكما وصف ذلك في القرآن الكريم﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾(٨٤) هود، ولكنهم أبوا واستكبروا واستمروا في عنادهم ولم يعطوا الناس حقهم، فقد كان أهل مدين يعتبرون بخس الناس أشياءهم نوعا من أنواع المهارة في البيع والشراء وشطارة في الأخذ والعطاء.

فقال لهم نبيهم كما ورد في القرآن الكريم "وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) هود وتوعدوهم بالرجم والطرد من رحمة الله ،ومذكر إياهم بما قد يكون قد بقي عندهم من أخلاق أو قيم، وما عند الله خير لكم ،وانه يريد الخير لهم ،وأنه ليس موكلا عليهم ولا حفيظا عليهم ولا حارسا لهم، إنما هو رسول يبلغهم رسالات ربه وأن كل ما يريده هو خير لهم ، وما هو عليهم بحفيظ ، ثم أخذ قومه يحاجونه بأسلوب جدلي وساخر كما وصف القران الكريم

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٨٧) هود، وباتوا يجادلونه ويتساءلون :

كيف يتركوا عبادة آبائهم للأشجار والنباتات، وصلاة شعيب تأمرهم أن يعبدوا الله وحده، أي جرأة من شعيب هذه؟. لم ييأس نبي الله شعيب من قومه فحاول إيقاظ مشاعرهم بتذكيرهم بمصير من قبلهم من الأمم، وكيف دمرهم الله بأمر منه. فذكرهم بقوم نوح، وبقوم هود، وبقوم صالح، وبقوم لوط، وأراهم أن سبيل النجاة هو العودة لله تائبين مستغفرين، فالله غفور رحيم. لكن كلام نبي الله شعيب زاد قومه أعراضاً وبعداً عنه قائلين كما جاء القرآن واصفا حالهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾(٩١) هود

لقد كان ضعيف بمقياسهم، ضعيف لأن الفقراء والمساكين هم فقط من اتبعوه، أما علّيَة القوم فاستكبروا وأصروا على طغيانهم، هذا من منطقهم الخاطئ ، ونسوا وأنكروا أن القوة بيد الله، والله مع أنبياءه، واستمروا بكفرهم وتهديدهم قائلين كما جاء في المصحف الشريف... ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(٩١)هود فقالوا له: لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضرباً بالحجارة، فعندما أقام شعيب الحجة عليهم، غيروا أسلوبهم، فتحولوا من السخرية إلى التهديد.

لكن شعيب تلطف معهم متجاوزاً لإساءتهم إليه وسألهم سؤالا كان هدفه إيقاظ عقولهم... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّه﴾(٩٢) هود

لكن قوم شعيب وصلوا لحد ضاقوا به ذرعاً بشعيب. فاجتمع رؤساء قومه، وقرروا الدخول بمرحلة جديدة من التهديد، فهددوه أولا بالقتل، ثم تحولوا بتهديدهم بطرده من قريتهم، فخيروه بين التشريد، أو العودة إلى ديانتهم وملتهم التي تعبد الأشجار والنباتات، ولكن نبي الله شعيب أفهمهم أن مسألة عودته في ملتهم مسألة لا يمكن حتى التفكير بها فكيف بهم يسألونه تنفيذها، لقد نجاه الله من ملتهم، أنه هو الذي يدعوهم إلى ملة التوحيد، فكيف يدعونه إلى الشرك والكفر؟.

دخل الصراع والمكابرة بقوم شعيب بأن بدأوا يطالبوه بأن ينزل عليهم العقاب فأنتقل الصراع إلى تحد من لون جديد. فراحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء إن كان من الصادقين، وراحوا يسألونه عن عذاب الله. فأوحى الله إليه أن يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية. وخرج شعيب والمؤمنين، وجاء أمر الله كما صوره القرآن الكريم " وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) هود

جاءتهم غمامة كبيرة أظلتهم ففرحوا بها وتصوروا أنها تحمل لهم المطر ثم فوجئوا بالغضب، وأنهم أمام عذاب عظيم في يوم عظيم. أدركتهم صيحة جبارة من السماء جعلت كل واحد منهم يجثم على وجهه في مكانه الذي كان فيه، لقد صعقت الصيحة كل مخلوق حي، فلم يستطع أي منهم أن يتحرك أو يجري أو يختبئ أو ينقذ نفسه، كل ما استطاعه هو أن يجثم في مكانه مصروعا بالصيحة، وما كان صبر شعيب على قومه إلا حبا لهم ،

وخشية عليهم ، وقلبه المطمئن بالإيمان كان دائما يحفزه ويعينه على الصبر على قومه ، ولكنهم أبوا أن يتبعوا الحق ، وظلوا على كفرهم قائمين ؛ ظنا منهم أنه الحق ،ولكن الله لا يخذل عباده المخلصين ورسله وأنبيائه فصدّق الله فيهم تحذير شعيب لهم، وأهلكهم ليكونوا عبرة للكافرين